

الإهداء

إلى أبناء قومي...

obeikandi.com

المقدمة

لقد كتب العديد عن عصر المماليك، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هل أنصفوا بذلك؟ ما هي مصادر ذلك التاريخ؟ فأغلب الكتاب المنصفين لذلك العصر قالوا بأنه عصر رقي وتقدم^(١)، وخاصة ما يتعلق بالعلوم أو على الأقل ما يتعلق بالتاريخ وبالأخص سجل الحروب والشخصيات.

بالإضافة إلى العلوم الدينية وما يتعلق بها وفروعها بشكل منفصل وباقي العلوم التي كانت تشغل اهتماماتهم، وكان هناك العديد من المدارس الدينية والدنيوية مع تأمين ملحقاتها ومستلزماتها لطلاب العلم، ولكن ماذا حدث بعد ذلك؟.

كان عصر الانحطاط عندما احتل العثمانيون بلاد الشام ومصر، ونذكر حينما خرج السلطان سليم الأول العثماني من مصر سحب كامل خيراتها وعلومائها وكتبها (المخطوطات)، وأجبر الصنائع المهرة بالذهاب إلى عاصمة دولته، وتلا ذلك جعل لغة الدولة الرسمية اللغة التركية، ونعت نفسه بأنه خليفة المسلمين بإجبار الخليفة العباسي التتائل له، وأعلن بأنه حامي المسلمين^(٢)، ونقل عاصمة الحكم من القاهرة إلى الأستانة^(٣)، والجدير بالذكر أن العثمانيين أصل بيتهم من التركمان النزالة الرحالة^(٤).

جعل اللغة التركية رسمية بالدولة قد أثر على اللغة العربية وآدابها، وحدث بعض التزوير المقصود غالباً بنقل المعلومات السابقة والمكتوبة بالعربية إلى اللغة التركية سواء في نقل الأخبار والحوادث والشخصيات لفترة، وأثر ذلك على الحقيقة العلمية والمستقبل. وكما قيل (من استطاع أن يشوه التاريخ واستطاع أن يصادر المستقبل)^(٥).

١ - محاضرات في الأدب المملوكي والعثماني ص ٧.

٢ - مصر والشراكسة ص ١٤١ ومن الموجز في تاريخ سورية ج ٢ ص ٦٥.

٣ - الوطن في أدب الشراكسة ص ١٥ والوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص ١٧.

٤ - محاضرات في الأدب المملوكي والعثماني ص ٢٠١.

٥ - فلسطين والقرشاي من بداية الكتاب.

بعد إخراج العثمانيين من البلاد العربية يبدأ بالتدوين من جديد وبدأت الثقافة العربية نشطة، وبدأت كتابة التاريخ من جديد، ولكن استمر التركيز على الشخصيات ونتائجهم كما أعيد كتابة بعض المخطوطات القديمة مع بعض التعليقات والتتقيح عليها، وبدأت الكتابات الجديدة عن التاريخ مع ما حدث له من تشويه نتيجة السيطرة العثمانية على البلاد العربية أربعة قرون تلتها بعض الدول الأوروبية على البلاد العربية (وهكذا صار التاريخ تاريخ الرسل والملوك وحتى يومنا هذا يدرس الناس التاريخ، حتى في الجامعات وفق الحقب الملكية، وليس حسب القضايا والأطوار الاقتصادية والاجتماعية والحضارية)^(١)، وبقيت دراسة التاريخ مرتكزة على (الفنون التي تتناولها الأمم والأجيال)^(٢).

تأليف كتاب تاريخي ليس بالأمر السهل، فلا بد من التساؤل حين قراءة أي كتاب: هل الكاتب منصف في كتابه أم لا؟ وهذا المنصف ما هي ميزاته؟ هل كتابته كانت بدافع تأريخ الحقيقة ونشرها أم بدافع محبة أو كره لشخص ما، أو لزمان محدد أو لعمل أو أثر تاريخي وإلى آخره من الأمور. ثم لابد من التساؤل عن مصادر هذا الكاتب وخاصة عند الحديث عن عصر المماليك الذي أنقذ الخلافة الإسلامية، وأحيا الأدب العربي والتراث العربي بعد تدميره مع سقوط بغداد، كما أوقف المماليك جحافل المغول والتتار والصليبيين.

كتب في زمن المماليك الكثير، ولكن بعد سقوط دولتهم أين بقيت تلك المخطوطات والكتابات. لقد بقيت ما سلم منها في بعض المكتبات العربية مثل دمشق ومصر وأخذ الكثير إلى الآستانة مع عودة السلطان سليم وما بعده، كما استولى عليها بعض الأجانب. ونجد ما كتب عن ذلك العصر في بعض المكتبات في أوروبا وروسيا وأمريكا، كما تم إعادة نسخ وكتابات عنها بطبعات جديدة بما يوافق هوى أولئك القوم.

^١ - مدن الشام في العصر المملوكي ص ١٣.

^٢ - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص ٨٥.

يلجأ أغلب كتاب التاريخ إلى النقل أو الاقتباس مما كتب في تلك الكتب ومن مصادر غير عربية وخاصة من قبل المهتمين بذلك العصر وعلى مبدأ كلهم أجنب، وقد أوقعتهم هذه في تناقضات عن ذلك العصر. وتجد في الكتاب الواحد مع المؤلف نفسه تناقضات وصفية للموضوع ذاته. وقد تكون نيتهم سليمة، ولكن كما قال الإمام الكوثري: (وقع بعض الكتاب وأهل العلم في أغلاط تاريخية وبسبب قلة اهتمامهم بالتاريخ، وإهمال علمه وعلم الرجال والأعلام وتقصيتها وهو العلم الذي لا يستغنى عنه في ساحات العلوم البشرية)^(١).

سؤال آخر يطرح نفسه طالما أن كتب التاريخ مشكوك فيها، لماذا لا ندعها ونترك الماضي؟ لكن هذه المقولة غير جائزة. كما قال الشاعر الداغستاني رسول حمزاتوف (من وجه إلى ماضيه بندقية، ستوجه إلى مستقبله سبطانة مدفع)^(٢). كما يُقال التاريخ يعيد نفسه ويقول الدكتور عبد اللطيف البغدادي: (ينبغي للإنسان أن يقرأ التواريخ وأن يطلع على السير وتجارب الأمم فيصير بذلك كأنه في عمره القصير قد أدرك الأمم الخالية وعاصرهم وعاشرهم وعرف خيرهم وشراهم)^(٣) ويجب على المهتم أن لا يقرأ كتاباً واحداً فقط ويعتقد بذلك وصوله للحقيقة، بل لابد من قراءة أكثر من كتاب ومن مصادر مختلفة عربية وأجنبية لتكوين فكرة صائبة وصحيحة. وفي كتابي المتواضع هذا عدت إلى العديد من المصادر المكتوبة باللغة العربية وهي متوفرة في المكتبات في الأسواق أو موجودة في المكتبات العامة في سورية مثل مكتبة الأسد ومكتبة الجامعة والمكتبة الظاهرية وغيرها. ومصادري وأغلبها الكتاب عرب في بلاد الشام ومصر، ومن كتب مترجمة عن أجنب انكليز وفرنسيين وأتراك وروس ومن بعض الكتاب الشراكسة في موطنهم وفي البلدان العربية المنتشرين فيها.

^١ - مقالات الكوثري ص ٦٠٣ - ٦٠٤.

^٢ - فلسطين والفرشاي من بداية الكتاب.

^٣ - كنوز الأحقاد ص ٣٢٩.

قبل البدء في الكتابة عن عصر المماليك والذي ثبت الخلافة الإسلامية وأصبحت عاصمتها القاهرة في مصر وحكامها والسلطين بعد أن نقلت من بغداد. والجدير بالذكر أن مقر الخلافة كان في دمشق زمن الأمويين، وقبلها المدينة المنورة زمن الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم.

آخر خلفاء العباسيين في بغداد المستعصم بالله ٦٤٠ - ٦٥٦ هـ. ومع احترام المسلمين كافة للخليفة والتابعة الاسمية لبغداد إلا أنه في الحقيقة كان يشارك حكم العباسيين آخرون، ففي فارس كان يحكمها السلجوقيون وفي خوارزم الخوارزمية وفي أذربيجان الإسماعيلية وفي أرمينيا إرم السلاجقة، وفي الموصل الأتابكية وفي مصر والشام الأيوبيون الأكراد^(١).

سقطت الخلافة العباسية في بغداد على يد هولاكو وبالتأمر من قبل الوزير ابن العلقمي وتقدم الخليفة مع أولاده الثلاثة وكبار الدولة مستسلمين لهولاكو في يوم الأحد ١٠ شباط ١٢٥٨م، وبعدها خربت بغداد وبشكل لا يوصف وقدر القتلى بمليونين. وفي يوم الأربعاء الموافق ٢٠ شباط ١٢٥٨م قتل هولاكو آخر خليفة عباسي في بغداد مع ابنه الأكبر، وأمر بتعقب أفراد الأسرة الحاكمة. أما ابن الخليفة الأصغر فقد أبقت زوجته هولاكو، ثم أرسل إلى سمرقند وتزوج بمنغولية وعاشت بنت الخليفة العباسي أسيرة في سمرقند حتى ماتت^(٢).

لا بد في هذه المقدمة من ذكر شروط الحكم في الإسلام لمعرفة مدى صحة حكم السلطين والذين سموا بسلطين الإسلام.

أهم الشروط التي يجب توفرها في الحاكم سواء سمي بالرئيس أو الملك أو السلطان أو الأمير أو اسم آخر لا بد أن يكون مسلماً لم يتلبس بأي كفر صريح، ومن الشروط لصحة الحكم لا بد من البيعة - انتخاب أو استفتاء - من قبل أهل الحل والعقد سواء كانت مباشرة أو غير مباشرة وأن يقترحه الخليفة مثلاً أو يعهد إليه من قبل الحاكم السابق، وأن يعلم الشعب والأمة وأهل الحل والربط بذلك، كما لا

١ - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص ٨.

٢ - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص ٩.

يجوز الاستيلاء على الحكم بالقوة أو الثورة . وذلك جائز إذا كان الحاكم السابق قد مات أو عزل بسبب شرعي صحيح أو يكون الحاكم السابق هو الآخر هو استولى على الحكم بالقوة والمغالبة. وكذلك لا يجب القبول بالحاكم الجديد المستولي على الحكم إذا كان الأول حكم بموجب بيعة أو عهد إليه وهو موجود. كما قال الرسول (صلى الله عليه وسلم): (إذا بويع الخليفان فاقتلوا الآخر منهما)^(١).

إذا تمعنا في هذه الشروط ومدى صحة حكم السلاطين نجد أنهم كانوا مسلمين بل كانوا يجاهرون بالإسلام والدفاع عنه ونشر تعاليمه وإقامة الشعائر الدينية ويقومون بالعبادات ويحضرون للصلاة ويحجون بيت الله الحرام بالإضافة إلى دفع الزكاة والصدقات، وهذه الأمور من أركان الإسلام، أما البيعة من الخليفة فمعروف أن استلام حكم السلاطين كان قبيل استيلاء هولاكو على بغداد الذي قضى على خليفة المسلمين بل الذي حدث أن أحيا السلاطين الحكم الإسلامي والخلافة العباسية وذلك بعد ثبوت نسبة أحد أبناء العباسيين وهو أبو القاسم أحمد بن الظاهر بن الناصر العباسي، وبعد تدقيق صحة النسب وحسب آراء العلماء والفقهاء والقضاة تم تنصيبه خليفة للمسلمين واعترف به السلطان الظاهر بيبرس^(٢)، وكذلك الخليفة العباسي في مصر قد اعترف بالسلطان نائباً عنه وتمت البيعة للسلطان، ثم تتالى الخلفاء في البيعة للسلاطين، ولم يحدث في عهد السلاطين أن أصبح سلطانان حاكمين في وقت واحد مع امتلاك البلاد الواسعة التي تسلطنوا عليها.

أمل أن أوفق في هذا الكتاب لشرح بعض الملابسات وتبيان أوجه الحقيقة ومدى صحة ما قيل عن السلاطين. والله الموفق.

^١ - الجهاد في الإسلام ص ١٤٨.

^٢ - من الموجز في تاريخ سورية ج ٢ ص ٦٥. والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ٧ ص ١٠٩ ومدن الشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ١٩٣.